التحليل الصوتي في الخطاب الشعري

قصيدة رثاء المدن لأبي البقاء الرندي أنموذجا

الأستاذ الدكتور: **عمار ساسي**
جامعة لونيسي علي البليدة 2 – الجزائر

مقدمة :

ربما يكون من الجديد في الأدب الأندلسي في غرض الرثاء رثاء المدن الذي لم تعرفه عصور سبقت. و ربما هو غرض يحكي تاريخا أليما ، و يصور بشاعة خصيم مبين ، و شراسة عدو صليبي حاقد يتفجر غيضا من فضيلة حياة وجمال عيشة صنعها المسلمون بقيمهم في الأندلس الشهيدة. وربما هو غرض يخط بقلمه الدامي قصوى درجة العداء التي يخبؤها عدو متربص بهم الدوائر ، لا يرضى في حياته إلا يزهق روح الفضيلة ، وبعقر ناقة الرسول التي نهاهم الله عنها في كتبه. ربما هو غرض يكشف عن طبيعة عدو استوى حقده وغله على محو نور الفكرة ولمعان الحجرة من على أرض الله تعالى. يريد أن يصنع من الفكرة مجزرة ، ويبني بالحجرة مقبرة.

إنه يريد أن ينسف أثر حضارة أسست على تقوى من الله نسفا.... إذن فهي الحياة صراع دائم بين حق وباطل ، فمرة يظهر الباطل على الحق ، ومرة يدمغ الحق الباطل ، و هكذا جولة وصولة و الأيام دول.....

ستقف الورقة على تحليل صوتي لقصيدة نونية ترثي مدن الأندلس للشاعر أبي البقاء الرندي وتتبع في إنجازها الخطوات التالية:

--- في النظري نتناول:

---- مقدمة واصفة لحالة الأندلس ووضعها وظروفها ، و معرفة بالشاعر أبي البقاء الرندي

----- وقفة على غرض الرثاء في أبعاده ومقاصده و ألوانه.

----- وقفة على مرادنا بالتحليل الصوتي للخطاب الشعري.

وفي التطبيقي نتناول التحليل الصوتي لنونية أبي البقاء الرندي ، قافية النون أنموذجا.

----- وفي الخاتمة نستنتج الرأي ونبدي المقترح .

----- وقفة على فن الرثاء --

جاء في لسان العرب: رثى فلانا يرثيه ، إذا بكاه بعد موته ,فإن مدحه بعد موته ' قيل رثاه يرثيه مرثية . ورثيت الميت رثيا ورثاء ومرثاة ومرثية. و رثوت الميت أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه ، و كذلك نظمت فيه شعرا ([1]).

لقد اقتصر مصطلح الرثاء في أول الأمر على معناه اللغوي 'ثم اتسع مجاله مع الزمن فإذا به ندب و تأبين

وتعزية لمفقود ما. فالرثاء مديح في قالب الألم و التفجع ، لأنه ذكر لمحاسن الميت التي تمثلت فيه قبل موته ببكائه والحسرة على ما مضى من زمانه وسالف عهده. فالرثاء إذا لغة القلوب و حديث العاطفة ، و هو أنة المحزون وصرخته... و آية ناطقة بفداحة الخطب لا ترسله الألسنة إلا من صدور مكلومة و أفئدة موجعة ونفوس باكية وقلوب ملتاعة ([2]).

كما أنه نواح على المدن التي خرجت والممالك التي فقدت بأهلها وعمرانها وحضارتها ، تحسر على أهل هذه المدن الذين قتلوا 'أو أسروا أو سبيوا 'أو انتهكت أعراضهم وأبيحت حرماتهم وديست مقدساتهم ([3])

يعد الرثاء عند كثير من النقاد من أصدق العواطف الإنسانية و أخلدها على مر الدهور وكر العصور ، كما أنه من أصدق فنون الشعر العربي قاطبة ' ذلك لأنه يخاطب عزيزا فارقه أو ملكا كان ملء السمع والبصر أو دارا دارت عليها عوادي الزمن .

و الرثاء في أصله يثير الوجدان ، ويربط الإنسان بأهم قضايا الحياة ، كالموت والفناء والبقاء.

كما تعددت صوره وتنوعت عند العرب على مر فترات زمنية مختلفة. ففي العصر الجاهلي وجدنا امرؤ القيس بن حجر الكندي أول من وقف على الديار وبكى على آبائه واستبكى الآخرين معه ، حيث يقول: (يا صاحبي قفا النواعج ساعة --- نبكي الديار كما بكى ابن حذام)

كما رثى آباءه الملوك و هلاكهم. و في عصور بعده أخذ الرثاء في تنوعه يتوسع من رثاء الآباء إلى رثاء الأبناء و الإخوان كما فعلت الخنساء ، إلى رثاء الأزواج كما فعلت جليلة بنت مرة لزوجها كليب ، ثم رثاء الأصدقاء كما فعل الشاعر خفيف بن ندبة بقوله:

---- أتاني حديث فكذبته --- وقيل خليلك في المرمس –

---- ويوم شديد حرور الحديد --- تقطع منه عرى الأنفس –

[1]- لسان العرب – ابن منظور – ج 14–ص 308–309– دار المعارف للطباعة والنشر بيروت 1956.

[2]- الأدب في الأندلس – عبد العزيز عتيق – ص 133–دار النهضة للطباعة والنشر –ط2 بيروت .

[3]- رثاء المدن في الشعر الأندلسي – عبد الله محمد الزيات – ص 83–84– منشورات جامعة قار يونس –ط 1

أما في العصر الإسلامي فقد وجدنا الرثاء غير مختلف في جملته عن العصر الجاهلي في ألفاظه وأساليبه إلا في تغير النظرة إلى الميت ، حيث أحدث الإسلام انقلابا جذريا في حياة الناس ، ذلك أنهم أصبحوا ملتزمين به اعتقادا ومعاملة وعبادة. إذ صار تعبيرا عن حزن نظيف فيه التوجع والألم والإيمان بقضاء الله وقدره. يدور في كلمة مخلصة مفادها: لله ما أعطى ولله ما أخذ.
إنا لله و إنا إليه راجعون.

ويتمثل نموذجه الحسن في رثاء حسان بن ثابت الرسول –صلى الله عليه وسلم– رثاء نظيفا بعيدا عن مغالاة الجاهلية وشركها وانحرافها في التصور والتصوير.

وفي العصر الأموي وجدنا فن الرثاء لا يختلف في مضمونه ولا وفي شكله و لا في جوهره رثاء صدر الإسلام ، ذلك أن عصر بني أمية قريب الصلة به.

أما في عصر بني العباس فقد وجدنا الشعراء ينهجون في الرثاء نهج بني أمية في الجمع بين التعزية و التهنئة. غير أن صوره في هذا العصر قد تغيرت تبعا لاختلاط التفكير العام و تأثره بالثقافات الأخرى من فارسية ورومية وسريانية.

أما في العصر الأندلسي فقد جاء الرثاء عاما على ذهاب الممالك الإسلامية ، أما رثاء الأشخاص فقد جاء ثانوية. وفي عصر المماليك لما انحطت الآداب انحطاطا شديدا ، جاءت صور الرثاء
تبعا لذلك باهتة غير واضحة لانعدام الفكر المتجدد الواعي.

وفي العصر الحديث تميز الرثاء بتعدد صوره الرثائية و تلونها بطابع مادي تبعا لغلبة الجانب ذاته على الحياة كلها.

وقد يكون من مقاصدها إلى جانب إثبات عمق الصلة الوجدانية الصادقة بالمرثى مع تعداد أوصافه المحمودة و أخلاقه النبيلة ، أن يحصل التأسي والاقتداء بقيم الشخصية المفقودة . وذلك عندي من الإخلاص والوفاء. هذا في العام ' لكن رثاء المدن يضيف إليه معاني الحسرة الحقيقية على التفريط في جنب الله 'وألم وندم باقيين في قلوب الأجيال لا ينزعان إلا بعودة الأندلس في أيدي المسلمين ' لأن ما حدث للأندلس هو من فعل أهلها قبل فعل عدوها ' إذ لو كانت كما كانت في قرون سبقت ما كان للعدو أن يظهر وينتصر . فالخروج على قواعد القوة وطبيعة القيم هو الضعف عينه .

--- في بعد التحليل :

إن المتأمل في هذا الخطاب الشعري الرثائي يجد خط القصيدة في جلها يتجه في حركة صوتية هابطة من جهر إلى خفوت ، ومن فعل سلوكي يبدأ بقيام وينتهي بسقوط . وقد نلمس ذلك جليا من أول بيت في القصيدة ، وهذه أمثلتها:

1-.....تم ..... نقصان.
2-.....سره ..... ساءته.
3-..... هذه الدار .....لا تبقي على أحد .
4-.....وفي الأبيات 4-5-6-7-8-9- تجسد صور الفناء مفصلة .
10-.....صار ما كان ..... خيال الطيف .
11-..... دار الزمان .....
12-.....الصعب لم يسهل ..... ولا ملك الدنيا سليمان .
13- ..... فجائع الدنيا ..... مسرات وأحزان .
14-.....للحوادث سلوان ..... وما لما حل بالإسلام سلوان .
15-.....أتى على القوم .....القوم ما كانوا .
16-.....دهى الجزيرة أمر .....وانهد ثهلان .
17-.....أصابها العين في الإسلام .....خلت منه أقطار وبلدان .
18-.....فاسأل ..... أين بلنسية ؟
19-..... أين قرطبة ؟
20-.....أين حمص ؟
21-.....قواعد كن أركانا ..... لم تبق أركان .
22- ..... تبكي الحنيفية البيضاء من أسف .....بكى لفراق الإلف هيمان .
23-..... على ديار من الإسلام خالية .....قد اقفرت .....
24-.....حيث المساجد .....صارت كنائس ....
25-.....المحاريب ..... جامدة
26-.....المنابر حبلى .....وهي عيدان .

وإلى هنا نلحظ اتجاه حركة هذا الجزء الأول من القصيدة يسير من حياة إلى موت ، ومن كيف كان إلى كيف صار . وبنظرة صوتية محللة من حركة هابطة من جهر إلى خفوت.

وذلك –برأينا– ليكرس الشاعر التوافق البين بين الجزء المنظوم والحال المكلوم الذي كان حركة فأصبح سكونا ، وكان حياة يانعة فصار موتا مخزيا.

ويبدو أن الشاعر كان في حالة من الحسرة والألم والتوجع لهذه الصورة المفجعة الكبرى وهو يخط بقلمه هذه الوصفة الرثائية السوداء في التاريخ رغما عليه .وكونه كان آخر الشعراء ، فقد كان محيطا بكل فاجعة ألمت من قبل بالأندلس الشهيدة ، وحتى آخر مدينة سقوطا (غرناطة).

وهذا يعني –برأينا – أن البكاء مرير و الألم شديد ، وأن الفاجعة أفزع كادت تفقده عقله.

ولما كان لا خبر كالعيان ، و ليس من رأى كمن سمع ، جاء الوصف الرثائي حقيقا ، حيث نقدر من هذا البيان أن الشاعر قد أصاب في رثاء المدن الساقطة في أيدي المكرة من المسيحيين .

ربما رثاؤه المدن كان فيه دلالة على ذهاب أهلها خاصة وعامة و هلاكهم و انتهائهم على يد العدو المسلط و المتربص. فهي المدن بأهلها' فإذا ذهبت ذهبوا كلهم .

لقد جاءت إشارة القرآن الكريم في وصف مدن الظالمين في قوله – والمثال مع فارق – (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لأية لقوم يعلمون) ([1]) . وإن كان سياق القرآن في هذه الآية يسير إلى غرض الاتعاظ والاعتبار.

ومع كل هذه الحالة المبكية ، فإن الشاعر المؤمن بالوطن و المتشبع بالحق المسلوب لم ييأس ، وأبقى الأمل في الله تعالى ، حيث انتفض من بكائه ونهض من ألمه ' وركب حركة العزم ، وقام رافعا نبرته الصوتية مستغيثا بأحرار من جيران المغرب الكبير لعلهم يوقفون علوج العدو ، ويعيدون الأهل إلى ديارهم وينقذون البراءة من يد الماكر 'ويرجعون الابن إلى أبيه و البنت إلى أمها.

وكان –برأينا – بهذه النبرة الصوتية أن يتحول الخط من سكون إلى حركة ، وأن ترسم هندسة خطها من الأدنى إلى الأعلى.

لكن الشاعر لم يفعل ذلك ، فهل أخطأ حين أبقى الخط – خط القصيدة – من حركة إلى سكون؟

وهنا أجدني واضعا التساؤل الآتي:

–ما وظيفة صوت النون القافية في سير خطوات القصيدة ؟

–وهل للنون وظيفة واحدة ، أم وظائف متعددة متميزة ؟

–وهل للنون ميزات خاصة خصت بها عن باقي أصوات العربية ؟

–وهل يمكن للنون أن تدل على حركة النزول وعلى حركة الصعود ؟

– كيف وظف القرآن الكريم صوت النون ؟ وما هي مواقع الاستشهاد ؟

–وهل كان لها الأثر في فكر الشاعر ؟

[1]- النمل 52.

ربما أبقى الشاعر وتيرة اتجاه خط القصيدة من حركة إلى سكون ، ليبقي القصيدة على نظام صوتي واحد إلى آخرها ، ويترك كلا من الرثاء والنداء على نغمة صوتية بكائية واحدة لعمق هذا الأثر في نفسية المنادي ولقوة تأثيره في نفسية المنادى .

وربما – في رأي الشاعر – يكون تغيير النغمة من هابطة إلى صاعدة مضعفا للأثر و التأثير.

فأبيات القسم الثاني من القصيدة صوبت لنداء الغوث بسيوف الهند المجاورة لعلها تدرك أهل الكفر وتغيث المستضعفين من قتلى و أسرى ومشردين من أهل الإيمان.

وقد سار الخط من نداء اعتبار عام إلى نداء استنجاد خاص ، إلى نداء إعلام بمصاب أهل الأندلس ' شملته أبيات من 26 إلى 33 ، في قول الشاعر:

-ياغافلا وله الدهر موعظة .....

-يا أيها الملك البيضاء رايته ..... أدرك ...

-أعندكم نبأ من أهل أندلس ؟؟؟

ولعل عظمة الفاجعة و قوة أثرها على حياة أهل الأندلس جميعا ، وكذا شدة غضب الشاعر من ذلك..... ومن طول لهو سيوف الجيران عن نصرتها ، هو الذي جعل الإخبار بالفاجعة يرتدي لباس استفهام. فهو استفهام فيه إخبار وغرضه بيان جلل المصاب في عين صاحب الراية البيضاء لعله يغار على حمى الإسلام وحرمة المسلمين ، فيتحرك الجيش للنصرة.

ولما كان الشاعر في القسم الأول من القصيدة يرثي مدنا بكاملها وهي تساقط في يد العدو لعله يبلغ بها إلى أثر نفوس أبيات فتهم للنصرة ، انتقل إلى وصف شدة التنكيل وشتى صور القتل البشع وأنذل رسوم الذل والانتقام و أقذر ألوان المكروه التي حلت بأبرياء الأندلس ' دون أن يستثني صغيرا أو كبيرا أو امرأة أو طفلة ، أو شيبة ، وهي وصفة باكية ومبكية للقلب في العمق لمن كان له قلب ' لعله يعمق من قوة الأثر فينتقل به من أثر في النفس إلى أثر في القلب... فإذا بلغ بهم مشاشته هم الجيش لا محالة للنجدة والنصرة . وهو انتقال موفق ودقيق يريد الشاعر به إبراء ذمته أمام الله تعالى وأمام التاريخ.

وفي بكاء القلب علامة إسلام و إيمان ، وعظمة مكروه ومصاب.

كما لم يغفل الشاعر بيان المصاب الأليم ، وقد حصره في معاملة التقاطع المولد للتنازع والضعف والفشل ، والمسبب لانقضاض العدو على الفريسة. قال تعالى في إشارة إلى هذا المعنى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ([1]) . وفيه إشارة النبوة أيضا إلى المعنى ذاته حين قال صلى الله عليه وسلم : (تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ...([2])

[1]- الأنفال 46.

[2]- حديث حسن صحيح رواه الترمذي .

--- في التحليل الصوتي –

و قبل البدء في فعل التحليل الصوتي يحسن الوقوف على مقولات القدامى و أراء المحدثين في بيان صوت النون وبعض أسراره الخاصة.

إن المتأمل في أصوات العربية يلحظ تنوعها وانعدام الترادف و التشابه فيها. وهذا التنوع في الأصوات يتوافق تماما مع تنوع عناصر الكون المشكلة للحياة على الأرض من ماء وهواء وشمس وشجر وتراب وغيرها سواء الكبرى منها أم الصغرى . كما يكشفه عالم النبات وعالم الحيوان و الحيتان..... وغيرها . وقد نلمس إشارات عناصر التنوع في الحياة كلها في قوله تعالى: (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه وغرابيب سود) ([1]) ، وقوله: (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) ([2]).

وفي هذا المعنى يقول الدكتور قارة حداش : أول وأهم ملاحظة تتميز بها الأصوات العربية تنوعها ، بحيث لا يشبه صوت غيره ، فإن تشابها في مخرجهما اختلفا في صفة من الصفات ، و إن تشابها في الصفات كلها افترقا وجوبا في المخرج .....([3])

كما يلحظ صفة أخرى مميزة فيها ، وهي التناظر . فكل صوت يناظر غيره في صفة واحدة أو صفتين أو في أكثر من ذلك ، أو في المخرج. والتناظر هندسة وجمال ' وهو سنة في الخلق ' قال تعالى : (فلله الآخرة والأولى) ، و قال: (أضحك وأبكى) ، و (أمات وأحيا) ، و(الذكر والأنثى).....([4]).

--- في خصائص صوت النون :

لقد حدد القدماء مخرج النون ما بين رأس اللسان وما يحاذيه من لثة الثنيتين العليتين ، ويخرج منه النون المظهرة ، وقيدنا بالمظهرة ، لأن النون المخفاة عنه مخرجها الخيشوم. ([5]).

يرى الخليل بن أحمد أن النون ذلقية لسانية ، لأن مبدأها في ذلق اللسان وهو تحديد طرفي ذلق اللسان ، حيث لا ينطلق اللسان إلا بها ، فلما ذلقت هذه الحروف الستة (الذلقية والشفوية) ومذل بهن اللسان سهلت عليه في النطق ، وكثرت في

[1]- فاطر 27

[2]- الرعد 4.

[3]- من أسرار النون– قارة حداش – ص 13– مجلة الصوتيات – ع 14– مخبر اللغة العربية– جامعة البليدة 2.

[4]- النجم 43-45.

[5]- أصوات اللغة – إبراهيم أنيس – ص 107–

أبنية الكلام ' فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى منها أو من بعضها ([1]). و المذلقة هي حروف يعتمد عليها بذلق اللسان ، وهو صدره وطرفه ([2]).

أما سيبوية ، فيجعلها في قائمة الأصوات غير المشربة (مثل اللام والنون والميم والعين والغين والهمزة) التي لا تسمع بعدها في الوقف شيئا من قلقلة أو نفخ ، لأنها لم تضغط ضغط المشربة ولا تجد منفذا كما وجد في هذه الحروف([3]).

أما أبو الفتح بن جني فيرى أن مخرج صوت النون من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا ([4]).

ويتابع مفصلا بقوله: ويدلك على أن النون الساكنة إنما هي من الأنف والخياشيم أنك لو أمسكت بأنفك ثم نطقت بها لوجدتها مختلة ، أما النون المتحركة فمن حروف الفم كما قدمنا ، إلا أن فيها بعض الغنة من الأنف ([5]).

ويقول أبو الفتح بن جني في وصف صوت النون :النون حرف مجهور أغن ويكون أصلا وبدلا وزائدا ([6])

ويرى المكي القيسي: أن النون: من المخرج السادس من مخارج الفم فوق اللام قليلا أو تحتها قليلا – على الاختلاف– من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا . لذلك كانت النون مؤاخية للام لقرب المخرجين و لانحراف اللام إلى مخرج النون ([7]).

([7]).

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس من المحدثين: أن النون صوت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة ([8])

ويقول في موضع آخر : ويعرض للنون من الظواهر اللغوية ما لا يشركه فيه غيرها لسرعة تأثرها بما يجاورها من أصوات ' ولأنها بعد اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعا في اللغة العربية. و النون أشد ما تكون تأثرا بما يجاورها من أصوات حين تكون مشكلة بالسكون ([9]).

ويرى الدكتور محمود زين العابدين: أن القدماء قد حددوا نقطة التقاء عضوي النطق ، ففي اللام لثة الضاحكين والنابين والرباعيتين والثنيتين ، وفي النون لثة الثنيتين العليين ، أما المحدثون فاكتفوا بوصفهما لثوية فقط . و يحدث أن يمر الهواء من الرئتين

---

[1]- في الصوتيات العربية و الغربية – مصطفى بوعناني – ص 37– دار عالم الكتب الحديث– 2010 – الأردن.

[2]- المرجع نفسه – ص61.

[3]- المرجع نفسه – ص 40.

[4]- سر صناعة الإعراب – أبو الفتح بن جني – ج1– ص 48.

[5]- المصدر نفسه – ج1 – ص 48.

[6]- – الخصائص – ابن جني –ج2– ص 435–دار الهدى للطباعة بيروت.

[7]- في الصوتيات العربية والغربية – مصطفى بوعناني – ص81– نقلا عن كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة –مكي بن أبي طالب القيسي بتصرف.

[8]- من أسرار النون في القرآن الكريم – قارة حداش ص5—(عن دلالة الأصوات – إبراهيم أنيس.)

[9]- المرجع نفسه –ص 5.

حتى يصل إلى الحنجرة، فتهتز الأوتار الصوتية ، ثم يمر الهواء حتى يصل إلى طرف اللسان متجاوزا أقصاه ووسطه. فيلتقي طرف اللسان مع لثة الثنيتين العليين ويهبط أقصى الحنك فيمر الهواء خلال التجويف الأنفي محدثا نوعا من الحفيف. أما صفات هذا الصوت فهي: الجهر والتوسط أو البينية والانفتاح و الاستفال و الإذلاق ، وهذه الصفات إنما هي للنون المتحركة ، أما الساكنة فهي غنة مخرجها الخيشوم ([1]).و يقول الدكتور قارة حداش: النون صوت ينتمي إلى عائلة صوتية متميزة بصفاتها ، الجهر والترقيق و إخوتها في هذه العائلة على التوالي من حيث الخفة والسهولة في التعامل مع الأصوات الأخرى (النون واللام والراء والميم) ، فهي تندرج صعودا من الخفة والسهولة إلى الثقل والقوة. فأخف الأصوات المتوسطة وأسهلها تعاملا مع الأصوات الأخرى صوت النون ، ثم يليها صوت اللام ، ثم يأتي بعد اللام صوت الراء ، ثم يأتي على رأسها الميم. فالميم هي أقوى هذه الأصوات ، واختلاف مخارج هذه الأصوات الأربعة هو الذي يميز بعضها عن بعض، فهي أكثر الأصوات وضوحا وأكثرها ائتلافا ودورانا في اللغة العربية ([2]). وهو صوت مميز بصفتي الخفة و السهولة ، يدلك على ذلك تدرجها صعودا وارتفاعا وارتفاعا من درجة إلى أخرى ، أي من صوت إلى آخر حتى يصل إلى أعلى درجة ، وهو درجة صوت الميم ([3]). و الدليل على خفة النون وسهولتها في التعامل مع الأصوات الأخرى ، وخاصة مع أفراد عائلتها هو تدرجها صعودا وارتفاعا من درجة إلى أخرى ، أي من صوت إلى آخر حتى تصل إلى أعلى درجة وهي درجة صوت الميم . فهي لا تتحرك من صوت إلى آخر إلا إذا كانت ساكنة، فإن كانت متحركة تبقى على حالها ، و الشواهد على ذلك من القرآن كثيرة... فإن كانت ساكنة تعاملت و ارتفعت من درجة النون إلى درجة الميم و إلى درجة الراء ، ثم إلى درجة الميم ، ولا يمكن أن ترتفع إلى أعلى من هذا ، ولا يحق لها ذلك، فهي في مجموعة محددة ولا بد لها أن تقف عند حدود هذه المجموعة.([4]). ويقول : وهنا استعملت لفظة ارتفاع أو أو صعود ولم تستعمل لفظة إدغام على شهرتها ' لأن القضية دقيقة جدا في هذا التعامل الصوتي ' فالمرحلة بكاملها تتم في حركتين منفصلتين. الحركة الأولى تتمثل في ارتفاع النون إلى أي صوت من الأصوات الثلاثة (الميم و الراء واللام) ، ثم الحركة الثلاثة إدغام الصوت المرتفع من النون هذه إلى ما يقابله من الأصوات الثلاثة تلك . والشواهد على ارتفاع النون إلى ما يقابله من الأصوات كثيرة (25). وجاء في موسوعة أطلس أصوات العربية : أن صوت النون هو من الفونيمات المنفردة السهلة في اللغة العربية ' ومعظم اللغات الأخرى . و هو من الفونيمات اللسانية اللثوية ' الأنفية ' المجهورة الساكنة العربية . يتكون الفونيم من منطقة اللثة و الأسنان والأنف ، حيث يتكون من في فجوات البلعوم والفم والأنف . ومخرج الفونيم من الأنف. وفي ميكانيكية النطق بصوت النون يبتعد كل من الشفتين والفكين عن بعضهما قليلا ، وتنطبق قمة اللسان على اللثة و الأسنان

[1]- نهاية القول المفيد – محمد مكي نصر – ص80– ط1– مصطفى الحلبي القاهرة 1349هـ(نهاية القول المفيد ص80 بتصرف نقلا عن الأصوات العربية ص107)

[2]- من أسرار النون في القرآن الكريم – قارة حداش– ص 6– الصوتيات –ع 14 – مخبر اللغة العربية – 2013– جامعة البليدة 2.

[3]- المرجع نفسه – ص 6.

[4]- المرجع نفسه – ص 6.

العليا انطباقا تاما ، حيث ينحبس تيار هواء الزفير الصوتي خلفهما ، وينخفض سقف الحلق الرخو واللهاة تماما لفتح تجويف الأنف تماما . وعند خروج تيار هواء الزفير الصوتي خلف اللهاة المسترخية لأسفل من خلال الأنف يحدث رنين الصوت الأنفي للفونيم (ن) .(أطلس أصوات العربية–وفاء محمد البيه ص1504–1506–الهيئة المصرية العامة للكتاب –ط1 –1994). وما نقرأه من حركة النطق بصوت النون ووضعية الأعضاء الفاعلة في إخراج هذا الصوت المميز و المتفرد ' فمن انطباق قمة اللسان على اللثة والأسنان 'إلى انحباس تيار هواء الزفير خلف اللهاة المسترخية لأسفل علامة دلالة هبوط ونزول وخفوت . فكأن حركة الصوت العضوية والميكانيكية لهذا الصوت تتجاوب مع حركة الهبوط والسقوط التي أصابت الأندلس الشهيدة . ويقول: وهنا استعملت لفظة ارتفاع أو صعود ولم تستعمل لفظة إدغام على شهرتها ، لأن القضية دقيقة جدا في هذا التعامل الصوتي ، فالمرحلة بكاملها تتم في حركتين منفصلتين ، الحركة الأولى تتمثل في ارتفاع النون إلى ما يليها من أي صوت من الأصوات الثلاثة: اللام أو الراء أو الميم ، ثم الحركة الثالثة إدغام الصوت المرتفع من النون هذه إلى ما يقابله من الأصوات الثلاثة تلك ، والشواهد على ارتفاع النون إلى ما يقابله من الأصوات كثيرة ([1]).

---- مميزات صوت النون فاصلة في القرآن الكريم:

لقد أفرز الإحصاء لصوت النون وأفراد عائلتها فاصلة في سورة الرحمان الترتيب الآتي:

----- صوت النون ورد تسع وثلاثين (39) مرة .

----- صوت الميم ورد خمس (5) مرات .

------ صوت الراء ورد مرتين (2) .

إن المتأمل في نغمة سورة الرحمان يجد فيها شيئا عجبا ، حيث يفاجأ بفاصلة (آن) الحاملة لصوت النون أن فيها دلالة نكران النعمة وجحود الحقيقة و تكذيب آلاء الله تعالى. وبهذه الوتيرة فإنها تحمل لوما شديدا على المخاطب من الإنس والجن من بداية السورة إلى نهايتها . فعوض الشكر فقد حل محله الكفر ، وعليه فإذا كان الشكر مديما للنعمة ، فإن الكفر هو مزيلها. و هي نغمة صوتية تمتزج فيها معاني التذكير بمعاني البكاء والندم والحسرة على التفريط في جنب الله. و ربما قد توافقت هذه الفاصلة النونية مع الحال وانسجمت. كما أحسب أن الشاعر ما كان له من خيار في اختيار هذه القافية المناسبة (صون النون) لحال الأندلس الشهيدة ، وهي في قبضة الصليب الكافر والحاقد.

[1]- المرجع نفسه – ص 6.

--- فاصلة النون في سورة القلم:

لقد أفرز الإحصاء لصوت النون فاصلة في سورة القلم الترتيب التالي :

--- صوت النون --- ورد تسع وثلاثون (39) مرة .

--- صوت الميم --- ورد سبع (7) مرات .

يلحظ المتأمل في سورة القلم أن نغمتها الصوتية تفسر بالإعراض عن الرسالة و الدعوة بأسلوب السخرية والتهكم من النبي، كما تتوجه نغمتها أيضا نحو الجحود بنعمة الله و الكفر بها.

مما سبب لهم غضب الله تعالى الذي سلب منهم النعمة . فالسورة كلها هي في معرض بيان أن الكفر والإعراض مسلبة للنعمة و مجلبة لسخط الله تعالى ، يدلك على ذلك قوله تعالى: (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون و أملي لهم إن كيدي متين) ([1]) ، وقوله في سورة أخرى: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ([2]).

لذا نتصور من هذا المعنى أن حركة نغمتها الصوتية تتصف بالهبوط ، فهي تنحدر من أعلى إلى أدنى . وعليه فحركة الهبوط تناسب الضعف و الموت ، وهي ثمرة من ثمرات العقاب وجزاء سلوك الإعراض. إذ الدعوة إلى الإيمان هي دعوة إلى نهوض وحياة وبعث جديد للإنسان و إلى المعالي و المراقي. و أن الإعراض والكفر و الجحود هو في مدلوله رفض لكل أشكال الحياة القائمة على عنصر الإيمان. فإذا كان الإيمان هو دعوة إلى الأعلى ، فإن الإعراض هو دعوة إلى الأدنى والأهبط ، وعليه يكون اتجاه حركته من علو إلى هبوط. لذلك نقول: بالإيمان يرفعنا الله إليه ، وبالكفر والجحود يردنا إلى أسفل سافلين.

وصوت النون الفاصلة قد يكون مناسبا لهذا الحال ، إذ هي جاءت للدلالة على ما كان عاليا فهبط، وما كان حيا فمات ، وما كان مبنيا فهدم ، وما كان نعمة فسلب ، وما كان مؤمنا فكفر ، وما كان قويا فضعف ، وما كان منتصرا فهزم.

[1]- القلم 43-45.

[2]- فصلت 13.

---- فاصلة النون في سورة التين:

لقد أفرز الإحصاء لصوت النون وعائلتها فاصلة ما يلي :

--- صوت النون ---- ورد ---- سبع مرات (7).

--- صوت الميم ---- ورد ----- مرة واحدة (1).

وهذا يفيد هيمنة فاصلة النون الدالة على الخفوت الصوتي والنزول الحركي . فنعمة لم تشكر سلبت من صاحبها .

كما أفرز الإحصاء التفصيلي لصوت النون وأفراد عائلتها ما يلي :

--- صوت النون ----- ورد سبع عشرة مرة (17).

--- صوت الميم ----- ورد عشر مرات (10).

---- صوت الراء ---- ورد أربع مرات (4).

--- صوت اللام ---- ورد ثلاث عشرة مرة (13).

وهذا ما يفيد هيمنة فاصلة النون ويؤكد الدلالة ، كما يتجه إلى إقرار قاعدة الإيمان علو و الكفر هبوط ، كما أن الحياة علو والموت هبوط.

لقد أقسم الله تعالى بعظيم المخلوقات من تين وزيتون وبلد أمين أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم تكريما له وتعظيما ، ثم أرداه أسفل سافلين ، وحرمه نعمة التكريم جزاء كفره بالله وبنعمه.

ثم استثنى من هذا العقاب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إذ هم مكرمون بأجر غير ممنون جزاء حسنا لهم.

لذلك أحسب أن فاصلة النون في السورة هي دالة على الهبوط والخفوت ، فهي بذلك تتوافق مع حال كافر النعم الذي سلبه الله تعالى نعمه فهبط وخفت.

كما أن وتيرة حركة السورة هي صعود ثم هبوط.

لقد جاء الاستثناء ضروريا في نهاية السورة لبيان فضل الله وعدله ، وأن المؤمن باق في أحسن تقويم ما بقي مؤمنا بالله ورسوله ونعمه ، وهي حقيقة حاصلة.

و أن الكافر مردود إلى أسفل سافلين وباق فيه ما بقي كافرا. وبدون استثناء يغيب هذا المعنى ويتساوى كل من المؤمن والكافر في فعل أحسن تقويم ، وفعل رده إلى أسفل سافلين.

---- التحليل الصوتي لنونية أبي البقاء الرندي ----

_ إحصاء صوت النون في القصيدة .—

لقد أفرز الإحصاء أصوات عائلة النون على الآتي :

_1 صوت النون في القصيدة ورد 106 مرة .
_2 صوت الراء في القصيدة ورد 60 مرة .
_ 3 صوت الميم في القصيدة ورد 212 مرة .
_ 4 صوت اللام في القصيدة ورد 144 مرة .

ربما كان الأجدر من هذا الإحصاء أن يغلب فيه صوت النون أصوات عائلتها في القصيدة، وهو الأقرب إلى العقل تأسيا بأنموذجي القرآن الكريم في سور الرحمان و القلم و التين ، ذلك أن الإحصاء لصوت النون فاصلة قد غلب صوتي الميم والراء، وظهر عليهما ظهورا بينا.

لكن الأمر الذي ظهرت به القصيدة بدا فيه شيء من الطرافة الغريبة ، يمكنها أن تقرأ من جهتين: أما جهة القافية ، فيلحظ غلبتها على طول نص القصيدة بما يقابل نسبة مائة بالمائة.

ولم ينافس صوت من عائلتها صوت النون.

أما من جهة الإحصاء التفصيلي لصوت النون و أصوات عائلتها فلم نعثر على غلبة صوت النون على باقي أصوات عائلتها ، وإنما وجدنا الإحصاء قد أفرز لنا الترتيب التالي:

_1 صوت الميم.
_2 صوت اللام.
_3 صوت النون.
_4 صوت الراء.

والقراءة هي إما أن يكون الشاعر قد أخفق في حق ميزان الإحصاء لصالح صوت النون ، و إما أنه تعمد فعل ذلك توافقا مع أحوال المصاب المفاجيء والمفجع ، وغير المنتظر ولا المرتسم في الذهن في لحظة من اللحظات.

وربما انقلب الغالب (صوت النون) إلى مغلوب في القصيدة لانقلاب وضع الأندلس الذي صار فيه الغالب مغلوبا و الحاكم محكوما والقائد مقودا.

وربما رسم الشاعر صوت النون قافية للقصيدة ، ذلك لأنها أخف الأصوات و أسهلها تعاملا مع الأصوات الأخرى ، كما أنها إلى الخفة والسهولة تجنح إلى صفة الضعف.

فهي لا تكلف الناطق بها جهدا كبيرا ، كما تكلفه الأصوات الأخرى ، لذلك فهي سهلة على الناطق و لو كان ضعيفا، أو مريضا ، أو محتضرا. وعليه فقد ناسبت حال الأندلس الضعيفة و المريضة و المحتضرة بكل ما تحمل هذه الأوصاف من دلالات في شتى المجالات.

---- الخاتمة:

لا نرى من مناسب في هذا العنصر الخاتم لهذا البحث سوى القول بما يلي :

–الرثاء فن شعري عريق و عريض ' غير أن الجديد في هذا البحث هو رثاء المدن الذي صنعته أثار الهزيمة ' وكتبته الفجيعة بدموع الأبرياء ' ورسمته المدن بسقوطها وخوائها .

–إن للتحليل الصوتي أثرا في إجلاء المعاني وإبراز دلالات الخطاب من العمق.

–إن لأصوات العربية معاني ودلالات لا تستخلص إلا بتتبع تطبيقي و تأمل خالص ومؤسس .

–إن لصوت النون في القرآن الكريم فاصلة معنى ودلالة ' وأبرز نموذج على ذلك خطاب القرآن الكريم في سور الرحمان والقلم والتين . تتجه حركة الصوت (ن) نحو الهبوط والنزول 'فهي أشبه بمؤمن كفر بالله ' وبصاحب نعمة الله جحدها '(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها و أكثرهم الكافرون)(النحل (83)

–إن لصوت النون قافية في القصيدة معنى ودلالة , فهو يحمل من السياق والحال معنى النزول والسقوط الهبوط والخفوت . وهذا يتناسب مع حال الأندلس النازلة والساقطة و الهابطة و الخافتة إلى اليوم .

---- مدونة الخطاب الشعري لأبي البقاء الرندي:

---1-- لكل شيء إذا ما تم نقصان ---- فلا يغر بطيب العيش إنسان --
---2-- هي الأمور كما شاهدتها دول ---- من سره زمن ساءته أزمان --
---3-- وهذه الدار لا تبقي على أحد ---- و لا يدوم على حال لها شان --
---4-- يمزق الدهر حتما كل سابغة ---- إذا نبت مشرفيات وخرصان --
---5-- و ينتضي كل سيف للفناء ولو ---- ولو كان ابن يزن والغمد غمدان --
---6-- أين الملوك ذوي التيجان من يمن ---- و أين منهم أكاليل و تيجان --
---7-- و أين ما شاده شداد في إرم ---- و أين ما ساسه في الفرس ساسان --
---8-- و أين ما حازه قارون من ذهب ---- و أين عاد وشداد و قحطان ----
---9-- أتى على الكل أمر لا مرد له ----- حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا --
---10-- وصار ما كان من ملك ومن ملك ---- كما حكى عن خيال الطيف وسنان –
---11-- دار الزمان على داره و قاتله ---- و أم كسرى فما أواه إيوان ---
---12-- كأنما الصعب لم يسهل له سبب ---- يوما ولا ملك الدنيا سليمان ---
---13-- فجائع الدهر أنواع منوعة ----- وللزمان مسرات و أحزان ----
---14-- و للحوادث سلوان يهونها ---- وما لما حل بالإسلام سلوان ---
---15-- أتى على الكل أمر لا مرد له ---- حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا ----
---16-- دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ----- هوى له أحد و انهد ثهلان ----
---17-- أصابها العين في الإسلام فارتزأت ---- حتى خلت منه أقطار وبلدان ---
---18-- فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ---- و أين شاطبة أم أين جيان ----
---19-- و أين قرطبة دار العلوم فكم ---- من عالم قد سما فيها له شان ----
---20-- و أين حمص وما تحويه من نزه ---- ونهرها العذب فياض وملآن ----
---21-- قواعد كن أركان البلاد فما ---- عسى البقاء إذا لم تبق أركان ----
---22-- تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ---- كما بكى لفراق الإلف هيمان ----
---23-- على ديار من الإسلام خالية ---- قد اقفرت ولها بالكفر عمران ----
---24-- حيث المساجد قد صارت كنائس ما --- فيهن إلا نواقيس و صلبان -----
---25-- حتى المحاريب تبكي وهي جامدة --- حتى المنابر تبكي وهي عيدان ----

---26-- يا غافلا و له في الدهر موعظة ---- إن كنت في سنة فالدهر يقضان ----
---27-- وماشيا مرحا يلهيه موطنه ---- أبعد حمص تغر المرء أوطان ----
---28-- تلك المصيبة أنست ما تقدها ---- وما لها من طوال المهر نسيان ---
---29-- يا أيها الملك البيضاء رايته ---- أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا ----
---30-- يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ---- كأنها في مجال السبق عقبان ----
---31-- و حاملين سيوف الهند مرهفة ---- كأنها في ظلام النقع نيران ----
---32-- و راتعين وراء البحر في دعة ------ لهم بأوطانهم عز وسلطان ----
---33-- أعندكم نبأ من أهل أندلس ---- فقد سرى بحديث القوم ركبان ----
---34-- كم يستغيث بنا المستضعفون وهم --- قتلى و أسرى فما يهتز إنسان ---
---35-- ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ----- و أنتم يا عباد الله إخوان ----
---36-- ألا نفوس أبيات لها همم ----- أما على الخير أنصار و أعوان ---
---37-- يا من لذلة قوم بعد عزتهم ---- أحال حالهم كفر وطغيان ----
---38-- بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم --- و اليوم هم في بلاد الكفر عبدان ---
---39-- فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ---- عليهم من ثياب الذل ألوان ----
---40-- ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ----- لهالك الأمر و استهوتك أحزان ---
---41-- يا رب أم وطفل حيل بينهما ----- كما تفرق أرواح و أبدان -----
---42-- و طفلة مثل حسن الشمس إذ برزت ----كأنما هي ياقوت ومرجان ----
---43-- يقودها العلج للمكروه مكرهة ----- و العين باكية والقلب حيران ----
---44-- لمثل هذا يبكي القلب من كمد ---- إن كان في القلب إسلام وإيمان ---